النهار
الجمعة 10 - 11 -2023 العدد28146

العرض الأول لـ "ثالث الرحابنة" في مهرجان BAFF وثائقي يحاول إنصاف إلياس الرحباني "العبقري"

روزيت فاضل

في هذا الزمن الرديء جداً الذي نواجه فيه مخاطر جمة تحاول فيها ثقافة الموت فرض نفسها على حقنا بالحياة، كان أمس الأربعاء العرض الأول للوثائقي "ثالث الرحابنة" عن المؤلف الموسيقي "بالفطرة" الياس الرحباني في مسرح بيريت في معهد الدراسات المسرحية والسمعية والمرئية والسينمائية في جامعة القديس يوسف وذلك فاعليات مهرجان بيروت للأفلام السينمائية BAFF حاملاً معه من خلال شهادات المشاركين فيه أمانة من الياس الرحباني الرؤيوي والحريص على المقاومة من خلال اللحن والكلمة، ولا سيما أن هذا الأخير عانى من قساوة البشر وغياب تقدير وزارات الثقافة والحكومات المتعاقبة لنتاجه السخيّ والكوزموبوليتي باستثناء تكريمه من خلال منحه أوسمة – وهذا أقل واجب – في عهد كل من الرؤساء الياس سركيس وإميل لحود وميشال عون.

هو الذي صارح الزميلة الراحلة مي منسى في مقال لها في جريدة "النهار" في 15 آب 2010 "أنني اعتدت منذ صغري ألا أنتظر لفتة من أحد. هل أنا منسي عمداً حتى لا أعتمد سوى على نفسي؟ الفريزة البشرية المغروسة التي تسبق أحياناً فلسفة التسامح والمحبة والأخوّة التي لطالما كانت مدرستي الفطرية التي سهرت على تنميتها حتى أنجو من سخرية القدر، من قساوة البشر. ففي تلك الأحيان التي لا أستطيع صدّها، تهبّ من عمق صدري عواصف الغدر والكذب، تجرح طبيعة الإنسان المرهف الساكن فيّ".

حاول هذا الوثائقي، الذي يعاد عرضه الثامنة مساء كل من السبت 11 تشرين الثاني والجمعة 17 تشرين الثاني في مسرح بيريت وهو محاولة مشكورة جداً لإنصاف الياس الرحباني، قامت بها مجموعة شبابية محترفة توزعت فيها الأدوار على البحث والإعداد لكل من ريمون أفتيموس وفيروز سرحال وهي مخرجة هذا العمل، الذي أنتجته سنتيا شقير بتمويل من قناة الجزيرة الوثائقية.

لا بد من الإشارة الى غياب عائلة الرحباني الصغيرة، الذي بررّه ابنه البكر غسان في فيديو بَثّ قبل عرض الوثائقي أفاد فيه أنه يتحدث نيابة عن العائلة، مشيراً الى أن وقوع 10 آلاف شهيد في غزة حال دون حضور العائلة لهذا الوثائقي المنتظر منا آملاً أن يتم ذلك في ظروف أخرى.

(تصوير: حسام شبارو)

ما أبرز الملاحظات في هذا الوثائقي؟ في الحقيقة، هذا العمل جاء تحية للرحباني "الثالث"، وضوّر في زمن جائحة كورونا، كاشفاً من خلاله دور الياس الرحباني في ترك إرث موسيقي، كما قال ابنه جاد الرحباني في الوثائقي، وصل الى 6 آلاف عمل فني باللغات العربية، الفرنسية والإنكليزية والإيطالية، مع قدرته على جمع الشرقي والغربي في لحن واحد وصولاً الى تلحين أوبرالي أداه التينور إدغار عون باحتراف عالٍ جداً.

كان من المستحب أن يكون للعائلة الرحبانية حضور في الوثائقي يتعدى إلمام الرحباني شقيقة إلياس وولديه غسان وجاد مع ما رافق في سياق الوثائقي من إشادة بدور السيدة نينا في حياته وخياراته المهنية.

كان محبذاً أن يكون لعائلة عاصي ومنصور رأي في إلياس الرحباني، رغم أننا نعي أن كل واحد منهم يعيش في "مربضه الخاص"، أو حتى أن تخصّ السيدة فيروز، التي كانت تزور الياس الرحباني أسبوعياً خلال مرضه مثلاً، بالتفاتة خاصة تُنقل على الهواء بطريقة أو بأخرى وهذا كان ممكناً ربما بعد التواصل مع ابنتها ريما.

كان ممكناً اللجوء الى إطلالة لزياد الرحباني في تعليق عن عمه الياس، ولا سيما أن صراحة زياد تميل خلال مقاربته الشؤون العائلية الى وضع النقاط على الحروف في المسيرة الرحبانية. كلنا نعي أن زياد يتميّز عن سائر الجيل الثاني من العائلة الرحبانية، بقدرته على مصارحة نفسه اولاً والآخرين ببعض النجاحات والإخفاقات داخل البيت الرحباني الواحد.

ماذا بعد؟ كان للصحافي المخضرم محمود زيباوي دور بارز كما شعرنا خلال متابعة وقائعه في رسم خريطة طريق هذا الوثائقي، لا سيما من حيث جمعه أرشيف الياس الرحباني وسرده المميز لرصيده في إنتاج الأسطوانات – وما أكثرها – مع ما رافق العمل من معلومات عن اقتران اسم الرحباني مع مغنين كمانويل وسامي كلارك وسواهما وتمايز الرحباني في إنتاج أغنيات بالفرنسية والعربية لأغنيات منها "حنا السكران" مثلاً. برأبرز

ركز الوثائقي على دور الإذاعة اللبنانية، التي تابعت إنتاج الرحباني بعد أن عمل فيها الفترة محددة، مع ظهور متكرر وكثيف لمقابلاته العديدة مع فنانين كثر في حلقات عدة من أرشيف تلفزيون لبنان. لكن العمل أغفل دور الصحف المكتوبة من صحف ومجلات أسبوعية وشهرية في متابعة إنتاج الرحباني "الثالث"، مع الإشارة الى أن الوثائقي بدأ بوصف أدبي مميز للصحافي والناقد الفني بشير صفير في جريدة "الأخبار"، الذي نحترم ونقدّر جداً.

ماذا اكتشفنا في هذا الوثائقي؟ اكتشفنا موسوعة متجددة في الثقافة والفنون اسمها الياس الرحباني. هذا الرجل، الذي أراد أن يثبت نفسه من خلال تزاوج إنتاجه بين اللحن، الصوت والكلمة، وبين الإصغاء للحن وتفاعل المشاعر معه.

خلاصة الوثائقي أشارت الى أن الرحباني دفع ثمن بقائه في لبنان. كان من الممكن أن يحظى بفرصة "إنصافه" في الخارج، كما حدث ذلك مع الكبيرين أمين معلوف وعبد الرحمن الباشا. لكن هذا الرجل بقي هنا صامداً في الحرب المجنونة على لبنان حاملاً اسم بلاده الى العالمية من خلال مشاركته في تأليف موسيقي رافق مناسبات رسمية في كل من قصر الكرملين الكبير وفي المدرسة الحربية بالولايات المتحدة الأميركية، وصولاً الى تلحينه نشيد الكونغرس الأميركي وسواها من المحطات المفصلية في حياتنا.

الياس الرحباني نجح في سعيه الدؤوب لتلحين أول أغنية للسيدة فيروز هي "بليل وأوضة منسية"، تبعتها مجموعة أخرى من منها "طير الوروار"، و"كان عنّا طاحون"، و"كنا نتلاقى من عشيّة"، و"لا تجي اليوم"، و"خلص الزرع"، و"جينا الدار"، و"حنا السكران" وسواها، إضافة الى تلحينه أغنية "بيني وبينك يا هالليل"، التي كانت مفصلية في حياة الفنانة هدى، إضافة الى تعاونه المثمر مع أسماء لامعة كصباح، ونصري شمس الدين، ماجدة الرومي، سميرة توفيق، سعاد، ملحم بركات، غسان صليبا وسعاد الهاشم ومروان محفوظ وطروب وآخرين وصولاً الى دفع مغنين عدة الى العالمية منهم "مانويل"، واكتشافه سامي كلارك، والأمير الصغير وسواهما.

دخل إنتاج الياس الرحباني بيوت اللبنانيين من خلال أغانٍ للصغار مثل "عمي بو مسعود"، مثلاً، وتلحينه إعلانات دعائية كنا نتابعها على شاشات التلفزة، وصولاً الى إطلالاته على الشاشة الصغيرة بروحه المرحة، التي أخفت وراءها الألم الوجودي المتعشّش في نفوس المثقفين.

وقد تحدث عن هذا الموضوع في الوثائقي كل من المغنية الأوبرالية القديرة جداً فاديا طنب الحاج وصديق الرحباني هنري زغيب. كشفت الحاج عن خوف الرحباني من المرض، الذي تملّكه في أعوامه الأخيرة، وهو ما تحدث عنه زغيب في قسم من كلامه في الوثائقي نفسه.

ختاماً، عكس الفيلم الوثائقي عن الياس الرحباني وجه لبنان الحقيقي، الغني بتنوعه الثقافي وبرجالاته الفكريين أمثال الرحباني، الذي عانى بصمت الكبار وبكبر قل نظيره إهمال الدولة لمفكريها.

يبقى سؤال واحد: هل ستحمل المناهج التربوية مخزوناً ثقافياً للجيل الناشئ عن الإخوة الرحابنة الثلاثة ومنهم الياس الرحباني؟

rosette.fadel@annahar.com.lb
Twitter: @rosettefadel